لا نعرف متى بدأ أهل السودان في توليد معارف إسلامية ذاتية ، ذات طبيعة محلية ، وهذا النوع من المعارف ، يأتي بعد التشبع ثم الإفاضة. ولا نعلم على وجه التحديد متى تشبع العقل السوداني بالمعرفة الإسلامية التي قوامها اللغة العربية ،التي تمكن من فهم القرآن الكريم والسنة النبوية والتاريخ الإسلامي وما انتجه العقل الإسلامي في مراكز الإشعاع القديمة مثل الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب .

غاية مايمكن القطع فيه ، أن أول عالم ينتمي إلى منطقة النوبة ، هو يزيد بن حبيب [1]. ولكن يزيد بن حبيب أصبح نوبيا متمصرا وخرجت معارفه العلمية في إطار الحاضنة المصرية حتى ولاه الخليفة عمر بن عبدالعزيز أمر الفتوى والقضاء ، في ذلك الوقت ، وانقطع وقت طويل من أيام يزيد في النصف الثاني من القرن الاول الهجري / السابع الميلادي إلى أن برزت مدارس ومراكز إسلامية في منطقة السودان النيلي على غرار سواكن ، التي استمدت أهميتها من كونها ميناء للحج والتجارة وأصبح يحكمها حكمام مسلمون ربما منذ القرن الحادي عشر الميلادي .

كما تم بناء المساجد والأربطة في الديار السودانية منذ أيام الخلافة الراشدة ، كما جاء في عهد البقط [2]. عن المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة – ولكن كل ذلك لا يكشف عن تحول إسلامي ذوي مغزى، علما بأن حتى قبول المصريين بالإسلام كجماعات تأخر حتى القرن التاسع والعاشر الميلادي، لذا لاعجب أن لم يظهر تحول كبير في الثقافة السودانية إلا بعد القرن الثالث عشر الميلادي / السادس الهجري.

وتشير المصادر الشحيحة عن هذه الفترة وما تلاه إلى وصول بعض رجال الدعوة والإرشاد إلى منطقة الدفار الممتدة من ربما دنقلة العجوز حتى كورتي وجوارها ، حيث ظهر فيها السيد / غلام الله بن عائد والبيلي الكبير وفي منطقة الشايقية إبراهيم البولاد وتبع ذلك تدفق الهجرات العربية فيما بعد قيام الدولة الفاطمية .

وفي بعض الروايات فإن أساس الدفار: الدهمشية والشويحات والدويحية والركابية والحضور. والبديرية لهم امتدادات من أهل السعية هاجروا إلى كردفان وبارا وأم بادر والنهود والكلام هنا حول بديرية الزراعة ، المنسوبين إلى بديريين سمرة المدفون في أبكر وتضم منطقتهم

---

(1) انظر حسن الشايقي ، يزيد بن حبيب ، إصدارات مركز البحوث ، جامعة إفريقيا العالمية .

(2) ربيع القمر الحاج ، عهد عبدالله بن أبي السرح الذي كتبه لملوك النوبة سنة 31هــ ، دراسات إفريقية،العدد السابع عشر ، يونيو 1991م ، ص 141

دنقلة الغدار ، جلاس وكورتي وأم بكول ومنصور كتي وقنتي إلى الدبة والغابة وجوارهما شرقا وغربا .

ولعل أول المحطات العربية الإسلامية بروزا ، بعد منطقة الدفار ذات الطبيعة النوبية المستعربة هي قري وأربحي وكترانج وبربر وأبوحرارز والتي تواكب بروزها مع الهجرات العربية، التي أدى تراكمها ، إلى تخريب ممالك النوبة، ثم القضاء عليها، وبروز طبقة الحكام المسلمين كما في عبدالله برشميو في دنقلة ثم بعد نحو قرن بعد ذلك – بروز القواسمة في قري ومحيطها ثم تحالفهم مع الفونج وانتهاء حقبة الحكام المسيحيين وبروز الممالك والمشيخات الإسلامية .

وفي إطار هذا التراكم التلقائي من هجرات وصراعات وحروب يمكن تلمس ظاهرة التيه أو إنتشار البديرية الدهمشية من مملكتهم الصغيرة على ضفتي الشريط النيلي إلى بقية انحاء السودان طلباً لكسب العيش في السودان الفسيح. وكما تماهياً مع الهجرات العربية التي قبلت بهم كدعاة وقفها. وكذلك في مرحلة متأخرة نتيجة لتوغل الشايقية في مناطقهم وتدميرهم لعاصمتهم الدفار مما اضطرهم للرحيل لجزيرة قنتي [3]. وبما أنه من الصعب تحديد مراحل الحراك البديري، ولكن يمكن تتبع آثار أهم العوائل البديرية ، التي انتقلت إلى السودان الفسيح كجبال النوبة مع عبدالله الحمال جدال الترابي ، ومع السادة الإسماعيلية في الابيض، ومع آل الترابي في الجزيرة ومع الببلاب في السودان الفسيح – ومع تلامذة غلام الله بن عائد في الركابية وآل سوار الدهب في مراحل تاريخية متقاربة [4]. .

وهناك اشارات متعددة في كتاب الطبقات وفي الطبقات الذيل والتكملة لظاهرة التيه الدهمشي ، الذين تشتتوا في مدن السودان ، التي أخذت تكتسب شيئامن الشخصية العلمية ، مثل دنقلة العجوز ، بربر ، شندي ، الحلفايا ، أسلانج ، اربجي ، توتي ، حلة حمد ، حلة خوجلي ، سنار، قري ، المسلمية ، أب قوتة ، أب حراز ألخ . فهناك مثلا إشارة للفقيه ابودلق (بكسر الدال) الذي تفقه على يد الشيخ عبدالرحمن بن جابر ومسكنه دنقلة الدفار وكذلك حبيب نسي (الركابي) ومسكنه في دنقلة ، حيث اشتهر بكراماته واشتهر أخيه دوليب نسي بعبادته– واشتهر ود عيسى بعلمه ، كما برزت مدرسة الغبش التي أسسها الشيخ عبدالله الأغبش الذي ولد ببربر وحفظ القرآن على الشيخ محمد سوار الذهب – وتوفي في التركية بعد عام

[3] نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان ، تحقيق فدوى عبدالرحمن طه ، دار عزة للنشر والتوزيع ، ص 427

[4] طبقات ودضيف الله ، الذيل والتكملة ، وجزء ابراهيم عبدالدفاع بشرح الشيخ احمد السلاوي ، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم ابوسليم ويوسف فضل حسن ، إصدارات معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ،كراسات غير دورية 13 ، ص 85

1821م ويجب استصحاب أن مملكة الدفار تضم الركابية والحضر والشايقية وشيء من المجموعات الدنقلاوبية وإن كان اساسها البديرية الدهمشية[5].   .

وأدى اشتهار الدهامشة بالصلاح والتقوى إلى مصاهرات مع الأشراف، حيث تزوج بعضهم بنات الشريف أبو دنانة، ناشر الطريقة الشاذلية في السودان، الذي كان مصاهرا للشيخ ابوعبدالله الجزولي ، صاحب كتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في سفر الصلاة على النبي المختار وهو من أشراف المغرب [6]. وتزوج من السادة البديرية بنات الشريف أبودنانة الشيخ حسن بن صالح البديري الذي تزوج أمونة ، وولدت له أبو القراءات في السودان الشيخ محمد سوار الذهب، وحليمة التي ولدت الشيخ عبدالله ود الأغبش – ومن غير البديرية ولدت عائشة الشيخ عجيب المانجلك ، وفاطمة ولدت الشيخ إدريس ود الأرباب ومكة ولدت الشيخ محمد السني مؤسس مدينة مدنيى وحفيد القاضي دشين.

وكثير ما يرد أن سكان الخرطوم الأوائل من المحس – ولعلها كلمة حاملة أوجه – ولعل بعض هؤلاء المحس من بناة الحياة الروحية في الخرطوم ، كانوا من النوبة المستعربة – أي من منطقة الدفار ن لأن شمال الدفار حافظوا على هويتهم ولغتهم إلا القليل ، بينما لم يعرف لرواد بناة الحياة الروحية في الخرطوم وجوارها لسان غير العربية .

من نماذج التيه البديري ، هجرة أحفاد الشيخ بشارة الغرباوي ، الذي عاش في القرن السابع عشر وهو الجد الخامس لاسماعيل الولي وبشارة من تلاميذ إبراهيم البولاد وسمي بالغرباوي ، لأنه كان يدرس في ترانج شرق النيل ثم يعوم النيل غربا لأهله في منصوركتي – وهاجر حفيده والد اسماعيل الولي عبدالله إلى كردفان في اواخر القرن الثامن عشر ، حيث ولد ابنه اسماعيل عام 1792 وتوفي 1863 وعلى غرار بشارة الغرباوي ، كذلك هاجر جدود آل الترابي كالشيخ عبدالله الحمال إلى جنوب كردفان وتوطن بعضهم في الجزيرة ومن أشهرهم حمد النحلان المشهور بابن الترابي ، والذي تأثر بالشيخ دفع الله العركي إلى درجة نبذه للعلوم الفقهية التقليدية، والتماسه طريق القوم والكشف والتجليات الباطنية ، كما عبرت عنه عبارته "انا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة" ، وتوفى في رواية1705م وعاصر من ملوك الفونج بادي أبودقن ، وبادي الأحمر وقد نصب الأخير ملكا عام 1792م [7].

---

(5) المصدر السابق ، ص 89

(6) مولود عام 1404 وتوفي 1465 وقضي اربعين سنة من عمره في الحجاز وربما صاهره أبودنانة هناك ولكنه مات مسموما من قبل خصومه في المغرب وله مزار ضخم هناك

(7) طبقات ودضيف الله ، سبق ذكره ، ص 170–175

ومن مشاهير البديرية الشيخ محمد البدوي نقد ولد بقنتي عام 1848 [8]. وعاصر التركية والمهدية والحكم الثنائي ومن بناة المعهد العلمي الذي تطور وأصبح جامعة أمدرمان الإسلامية ومن تلامذته السيد عبدالرحمن المهدي ، وكذلك يرد اسم عبدالدفاري والشيخ نورالدائم بن محمد على العجيمي ، شيخ الطريقة العجيمية المولود بالبرصة عام 1888م – 1952م – ومن مشاهير البديرية بجهة الأم آل مدثر البوشي ، حيث والدته نفيسة بنت السيد الباقر بن الشيخ اسماعيل الولي .

وبما أن منطقة الدفار احتضنت الركابية والدويحية وتخالطوا مع البديرية ، فإن آل خرسى أمتداد للدواليب بالدبة – وعبدالله عبدالحفيظ الدفاري- المولود 1244هـ – 1828 والذي اتصل بالحسن الميرغني ورافقه إلى مكة والتقى بالسيد ابراهيم الشيد ثم استقر في الكوة .

ومع كل جهود البديرية وإنتشارهم، إلا أن أوضاع الدعوة الإسلامية قبل قيام مملكة الفونج كان صوريا لأن الرواد كانت تنقصهم المعرفة الدقيقة بالفقه الإسلامي – وأول من اشتهر اسمه وكان قادرا على توليد المعرفة الإسلامية هو غلام الله بن عائد اليمني والذي قدم من الحليلة في اليمن في أواسط القرن الرابع عشر وقرر البقاء في دنقلة العجوز على أطراف مناطق البديرية وقد هاله ما رأي بأهله من جهل وصبوة لإنعدام العلماء والقراء [9]. وقد تخرج رواد البديرية في الدعوة والإرشاد من مدرسة غلام الله بن عائد وحمد أبي دنانة ، ومما زاد وتيرة الحراك الإسلامي، قدوم كذلك الشيخ محمود العركي من بني عرك فرع من جهينة من مصر بحصيلة طيبة من الفقه المالكي وأنشأ سبع عشرة مدرسة بين الخرطوم واليمن لتدريس الفقه وفي مرحلة لاحقة تأثر حمد النحلان ودالترابي بخليفته دفع الله العربي ، ويمكن فهم تاثير الاشخاص على غرار ما فعله الشيخ على بيتاي وسط المجموعات البجاوية في شرق السودان .

ومن رواد البديرية في الدعوة الفكي هاشم المتوفي 1340 – 1921 والذي أسس مسيده في الفكي هاشم [10]. وهو من سلالة الشيخ محمد ود بري وجاء الفكي هاشم كغيره من دنقلة .

من الخطأ حساب التعداد السكاني للبديرية الدهمشية ، بمن هم على الشريط النيلي في منطقة الدفار وجوارها ، حيث ظل سكان هذه المنطقة يفيضوا على بقية السودان ولمدة ثلاثمائة سنة

---

(8) موسوعة أهل الذكر بالسودن المجلد الخامس ، من إصدارات المجلس القومي للذكر والذاكرين ، ص 1641

(9) يوسف فضل حسن ن مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450 – 1821م سوداتيك المحدودة ، 2012م ، ص 138

(10) موسوعة ، الذكر والذاكرين ، ص 1549

على الاقل نتيجة لضيق الرقعة الزراعية والجفاف ومشاكل الصراع على الأرض– المحدودة نتيجة للتكأثر والإرث ، وكذلك طلبا للمغامرة والتجارة والدعوة – ولذلك تشعب الشتات البديري حتى انطوت الهوية البديرية وذابوا في مدن السودان الكبرى – الخرطوم ومدني والكوة والقطينة والأبيض وبارة وسنار الخ .. واصبح لهم دور حتى الثقافة الرياضية وكرة القدم والتمدن عامة.

وما عاد يمكن الكلام عن السياحة الروحية في السودان دون الإشارة إلى آل الترابي ، والإسماعيلية ، والببلاب والغبش ، والعجيمية والتجانية خرسي وآل الفاتح نور وال البدوي ولايمكن الكلام في السياسة دون الإشارة إلى حسن الترابي واحمد السيد حمد واسماعيل الأزهري واحمد عبدالحليم والجزولي دفع الله وعبدالرحمن سوارالذهب – وإبراهيم المفتي – وعمر حسن البشير الخ وإذا ذكرت سبل كسب العيش والتجارة لا يمكن ذلك دون الإشارة إلى الجلابة والكوارتة وآل كمبال .

أما عن الشعر والأدب والفن ، فمن عبدالله الشيخ البشير شيخ شعراء السودان إلى آل الكد واسماعيل حسن والطيب صالح ومحمد المكي إبراهيم والخضر محمود صاحب نوارة قنتي والنعام آدم صاحب الربابة والطمبور أما عن التاريخ والفكر فمن المؤرخ محمد عبدالرحيم إلى عبدالله على إبراهيم ومحمود محمد طه وقاسم عثمان نور .

وفي المديح الشيخ ود سعيد المولود عام 1890م بقنتي وفي الرياضة والكورة آل شداد وانتهاء بمعتصم جعفر وفي التعليم عثمان سيداحمد البيلي والمئات من أضرابه وفي العسكرية عباس مدني وعوض خوجلي وفي النقابات محجوب أحمد الزبير .. الخ.

ومن الأطباء التجاني الماحي بوالدته، وعبدالرحيم محمد أحمد ومبارك الفاضل شداد والمئات من الآخرين .

وفي العموديات عمودية قنتي آل أبوشوك وعمودية جلاس آل وقيع الله وعمودية كورتي آل كمبال وشيوخ دنقلة الغدار إلى سوار الذهب الخ .

واختم هذه الدراسة باختيار اعتباطي علاقة قنتي بالحصاحيصا لا لشيء، إلا لأن جذوري من قنتي ولكني ولدت في الحصاحيصا ونشأت فيها – ولم أك ادري أنني انتمي لهذه العشيرة ، وإن كنت اسافر مع الأهل في المناسبات لقطاع قنتى – منصور كتي ولكن حينما أتامل مجتمع لاحصاحيصا على أيامي وتشكل بواكير وعي نهاية الخمسينات والستينات تتضح صورة المتاهة البديرية أو الإضافة التي أضافتها لمدينة الحصاحيصا ، فسر تجار الحصاحيصا حيتها الوداعة يقال أن جذوره البعيدة تنتمي لهذه العشيرة وإن قد أصبح وأهله ركائز الحصاحيصا مزاجا واختلاطا وتفاعلا وإرثا وهو باني ثاني مسجد في المدينة ، وأعيان الحصاحيصا من البديرية كان فيهم محمود سيداحمد عم الكاتب الصحفي المعروف السر سيداحمد وكان من

التجار المعروفين وكذلك يوسف حسن بابكر ولعله أهم شخصية في الحصاحيصا على أيامنا وكلا المذكورين ينحدران من قنتي وكذلك والدنا رحمه الله عليه بالإضافة إلى على عيسى الذي أصبح رئيسا للمجلس البلدي ووكيلا للبص السريع حينها وأول من أدخل عربات التاكسي في الحصاحيصا كانوا ينحدرون من هذه العشيرة ، مبارك محجوب ، والعطايا وترتورا– وسائق البنطون الشهير الذي يربط الحصاحيصا برفاعة سيداحمد – والد الأستاذ محمد سيداحمد – من أهل قنتي بالحصاحيصا ولا اعتقد أن هناك مركزا أو مربطا في الحصاحيصا خلا من المنتسبين لهذه العشيرة – وأقول للجنة سنار عاصمة للثقافة الإسلامية التي استكتبني هذه المقالة واختارت العنوان يا ترى هل المتاهة البديرية متاهة أم إضافة – في عصر القيمة المضافة ، وعلى أية حال، مع ازدياد الوعي وإنتشار التعليم والتمدن تزدهر شجرة القوميات والعشائر السودانية باسم السودانية والإخاء والمساواة ونتيجة للتداخل والتصاهر والتجارب والعيش المشترك..

أ.د. حسن مكي محمد أحمد

الثلاثاء 9 شوال 1438هـ

5/7/2017م